هوامش

افتتح الرئيس التركي رجب طيب أردوغان جامع كاريا في إسطنبول، بعد 79 عاماً من تحويله من كنيسة إلى متحف، ليتشابه مع جامع آيا صوفيا بسيرته ومسيرته وردود الأفعال الأوروبية

مسجد كاريا بعد أعمال الترميم (سيركان اوزكورنازلي/ Getty)

جامع كاريا

تركيا تعيده إلى مكان عبادة اقتداءً بآيا صوفيا

إسطنبول ـ **عدنان عبد الرزاق**

باختصار

شهدت منطقة ايدرنا كابيه في حيّ الفاتح بإسطنبول، افتتاح مسجد كاريا للعبادة رسمياً، بعد أربع سنوات على صدور مرسوم الرئيس التركي القاضي بتحويل المتحف إلى جامع

■■■

آيا صوفيا وكاريا مسجّلان مسجدَين في سندات الملكية التي تحمل اسم مؤسسة محمد الفاتح، وهو السلطان العثماني الذي ضمّ القسطنطينية إلى الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر

يستمرّ الرئيس التركي رجب طيب أردوغان في تحويل المعالم التاريخية المسيحية أيام القسطنطينية إلى دور عبادة إسلامية بعد افتتاحه جامع كاريا في إسطنبول الذي كان كنيسة ثم متحفاً، بعدما أخذ حزب الشعب الجمهوري المعارض خطوة محايدة أيام حكمه في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، بتحويله تلك المعالم إلى متاحف مفتوحة للجميع من دون أن يكون لها صبغة دينية. يُسوّق أردوغان لتركيا القوية صاحبة القرارات السيادية، سواء راقت قراراته الغرب، وفي مقدمته اليونان وروسيا، أو لم ترقه، من دون أن يعادي أحفاد البيزنطيين في وقت واحد، وقد افتتح الرجل كنيسة سانت ستيفان الحديدية في إسطنبول بالتعاون مع بلغاريا عام 2018، وكنيسة مار أفرام السريانية الأرثوذكسية القديمة، وهي أول كنيسة شُيدت في عهد الجمهورية التركية. وتصون تركيا الحقوق وحرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية لكل من هم على أرضها، استناداً إلى دستور عام 1923، رغم التعديلات الكثيرة التي طرأت عليه. وعملت على ترميم 14 كنيسة مسيحية وكنيساً يهودياً خلال فترة حكم حزب العدالة التنمية الممتدة منذ عام 2002 وحتى اليوم.

وشهدت منطقة ايدرنا كابيه في حيّ الفاتح بإسطنبول، افتتاح مسجد كاريا للعبادة رسمياً، بعد أربع سنوات على صدور مرسوم الرئيس التركي في أغسطس/ آب 2020 القاضي بتحويل المتحف إلى جامع وتسليمه من قبل وزارة السياحة إلى رئاسة الشؤون الدينية. وخلال هذه الفترة، أُهِّل المسجد وأُعيد ترميمه ليأخذ حلّة الجامع من دون العبث بزخارفه ونقوشه على الجدران أو أكبر لوحة فسيفساء على سقفه التي تحكي قصة يوحنا المعمدان.

ولكنيسة تشورا أو المخلص المقدس سابقاً وجامع كاريا اليوم، حكاية تتطابق مع قصة كنيسة آيا صوفيا التي تحولت إلى جامع بعد الفتح العثماني ثم إلى متحف في زمن حكم حزب الشعب الجمهوري قبل أن تُعادَ عام 2020 جامعاً. ويقع جامع كاريا في حيّ الفاتح غربيّ إسطنبول القسم الأوروبي، ويعود تاريخه بحسب المصادر التركية إلى القرن السادس الميلادي. وبقي كنيسة منذ ذلك الوقت، وحتى بعد فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام 1453 بنحو 58 عاماً، لتتحول إلى جامع إثر قرار من الصدر الأعظم علي باشا عام 1511، وتُمسَح اللوحات الجدارية والموزاييك عن الجدران. وبقي جامعاً حتى 1923 وقت إعلان الجمهورية التركية على يد مصطفى كمال أتاتورك، ليتجمد دوره جامعاً حتى عام 1956، حين تحول إلى متحف. ويتحدث الدليل السياحي التركي سردار دونميز، لـ«العربي الجديد»، عن تحولات تشورا منذ أن كانت إسطنبول مركزاً للمسيحية الشرقية أو أنطاكية، لكونها أحد الكراسي الرسولية إضافة إلى روما والقسطنطينية والقدس. فالكنيسة بُنيت عام 534 في زمن البيزنطيين، وبعد حوالى 50 عاماً من فتح المسلمين للقسطنطينية، أمَر عتيق علي باشا وزير السلطان بايزيد الثاني بتحويل المبنى إلى مسجد. وفي أغسطس/ آب من عام 1945، قررت الحكومة التركية تخصيص الجامع لوزارة التربية على أن يستخدم متحفاً ومستودعاً، وبقي كذلك حتى عام 2020 حين أصدر أردوغان مرسوماً بتحويل المتحف إلى جامع. ويكشف دونميز تغطية فسيفساء سقف تشورا بالجبس خلال فترة تحويلها إلى جامع. لكن بعد تحويلها إلى متحف، تم ترميم وإعادة كشف الفسيفساء من قبل متخصصين في المعهد البيزنطي الأميركي عام 1956، لإظهار كل اللوحات الفنية والفسيفساء والموزاييك إلى العلن. وصنف هذا المتحف الصغير (742 متراً مربعاً) كواحد من أجمل الكنائس البيزنطية، ويعوّض جمالها الداخلي عن صغر حجمها، وتحتوي على الكثير من اللوحات الفنية الجدارية الرائعة المكسوّة بالفسيفساء. في المقابل، يقول رجل الدين التركي خليل أوزون، الذي صلى في الجامع يوم افتتاحه، إنّ من حق تركيا إعادة كاريا إلى جامع، وليس بذلك تعدٍّ على أحد، فالمكان في بلدنا وتحت سيادتنا، وقد حوله أجدادنا إلى جامع، قبل أن تحوله قرارات حزب الشعب الجمهوري إلى متحف ومستودع، وتحول الكثير من المساجد إلى خانات ومستودعات للحبوب. ويشير أوزون في حديثه لـ«العربي الجديد» إلى أن آيا صوفيا أو كاريا مسجّلان مسجدين في سندات الملكية التي تحمل اسم مؤسسة محمد الفاتح، وهو السلطان العثماني الذي كان قد ضمّ القسطنطينية إلى الدولة العثمانية خلال القرن الخامس عشر، وهذا التصنيف غير قابل للتعديل. ويؤكد أن استعادة تشورا جامعاً ليس معناه إغلاقه في وجه أحد، بل هو مفتوح لجميع الزوار والمصلين، وخصوصاً أنه يقع في منطقة سياحية قديمة تضمّ محالّ تبيع تحفاً وصناعات زجاجية يقابله موقع سياحي يقصده الكثير من السياح حول العالم.

ويذهب كثيرون إلى تشبيه كاريا البيزنطية بآيا صوفيا، لكونهما مرّا بالتحولات نفسها، أي كنيسة فجامع ثم متحف فجامع. فتشورا عبارة عن كنيسة بناها البيزنطيون وأُطلق عليها اسم كنيسة المخلص المقدس. وتشغل جدرانها وأسقفها رسومات ولوحات تحكي قصة يوحنا المعمدان، وهي تماماً كتلك الموجودة في متحف آيا صوفيا، التي تحكي ولادة ونشأة السيد المسيح والسيدة العذراء وبعض اللوحات المتعلقة بالثقافة البيزنطية. وتتشابه كلتا الكنيستين عبر تاريخ البناء والتحول إلى مسجد ثم إلى متحف فمسجد، إذ بُنيت آيا صوفيا في عهد الإمبراطور جستنيان عام 532 م، واستغرق بناؤها نحو خمس سنوات، وافتُتحت رسمياً عام 537 م، وهي الأكبر والأهم بلا شك، لكونها المعلم المعماري البيزنطي الأبرز. واستمر مبنى آيا صوفيا على مدار 916 عاماً كتدرائية ولمدة 481 عاماً مسجداً. ومنذ عام 1935، أصبح متحفاً قبل أن تعاد عام 2020 إلى مسجد مع الاحتفاظ بكونها أهم التحف المعمارية في تاريخ الشرق الأوسط.

وقالت اليونان عبر وزارة خارجيتها، بعد افتتاح جامع كاريا: «من المحزن جدّاً بالنسبة إلينا افتتاح كاريا في إسطنبول مسجداً للعبادة، فهذا يشكل تحدياً للمجتمع الدولي، إذ يفسد ويهين طابع اليونسكو للتراث الثقافي للمبنى». ردّ يتشابه تماماً مع ردود الأفعال يوم افتتح أردوغان جامع آيا صوفيا، وإن كان الصدى والاعتراض وقتذاك أكبر وامتدّ إلى فرنسا والاتحاد الأوروبي وروسيا. لكن تركيا أعادت الرد ذاته «مسألة سيادية وحقوق الأجداد وإرثهم».

وأخيراً

أنّك هنا... في الرباط

معن البياري

يعنيك في أيّ مدينةٍ تزورُها، سائحاً أو ضيفًا، ما إذا كنت تستشعرُ فيها الأُلفة، أو الوداعة إن شئت. وإذا كنتَ طفتَ فيها من قبل، فإنك، غالباً، ستَشغَل ذهنك بمقارناتٍ بين الذي كنتَ قد رأيتَ والذي قدّامك اللحظة. وفي مُقامي أسبوعاً في الرباط التي أقمتُ فيها نحو أربع سنوات قبل ثلاثة عقود، وزرتُها تالياً غير مرّة، آخرُها قبل عشر سنوات، احتشدَ فيّ شعورٌ بأنّ تجدّداً فيها يجعلني أراها، بقدرٍ ما، مدينةً أخرى غير التي عرفتُ، فصحيحٌ أنَّها كانت وديعةً، ولكن كل هذه النظافة فيها (الزائدة في رأي صديقٍ مازحاً)، في شوارع عريضةٍ، في أحياءٍ وضَواحٍ واسعة، تجعلها مدينة استثنائية في أمرِها هذا. سيّما أنه يتوازى مع أناقةٍ ظاهرةٍ بفعل كثرة الحدائق، صُغرى وكُبرى، وتوزّع الأشجار على جنبات الشوارع والأرصفة والميادين والساحات. ليس هذا جديداً تماماً، غير أنه أمام ناظريّ الآن أزيدُ مما قبل، أكثرُ تناسقاً، أوقعُ في الحشايا. ولمّا كانت مدنٌ عربيةٌ غير قليلة تتوفّر على هذا أو بعضِه، فإن الذي يُعطيه هنا، في الرباط حيث تنكتب هذه الكلمات، بعداً خاصّاً، أنه يتآلفُ مع فضاءٍ فسيح يجعل المزاج طيّباً، لا ازدحام فيه ولا ضجيج، فلا اختناقاتِ مروريةً، ولا حافلاتٍ مكتظّةً، ولا سياراتٍ تفيض في الشوارع بأعدادٍ تثير النفور، وغير ذلك مما صِرنا نعهدُه في مدنٍ عربيةٍ عريقةٍ وحديثة، فيها كثيرٌ من أسباب الانجذاب إليها، إلا أنّ الإيقاع العام فيها قد يبعثُ على تكدير المزاج، كأن تضيع نحو ساعتين في مشوارٍ لك بين نقطةٍ وأخرى غير بعيدتيْن، بسبب الكثافة العالية للسيارات وعدم التخطيط جيداً في تنظيم المرور ومسارات العربات والحافلات، وارتباكاتٍ مزعجةٍ عند الجسور، فضلاً عن حشود الناس في غير مكان. لا شيء من هذا في الرباط التي أرادها صانع القرار مبكّراً مدينة عصرية، مدينة الإدارة والسياسة وتسيير الشأن العام. ليس مطارُها (الدولي) مركزياً في البلاد. عاصمةٌ فيما هي الثانية مساحة (بعد الدار البيضاء)، فحافظت دائماً على سمْتها الأهدأ، وإنْ لا ينفي هذا أن أحياء شعبية فيها تعرف ما في مثيلاتٍ لها من مظاهر أخرى.

أراها الأسوار التي أعرفُها، بناها الموحّدي يعقوب المنصور لمّا سمّى المدينة التي أقامها «رباط الفتح» في القرن الثاني عشر. أرى قصبة الوداية الباقية منذ عهدٍ رومانيٍّ بعيد. أراها صومعة حسّان. أراها القلاع غير القليلة. أراها الرباط مدينة العساكر والجيوش والحصون. أرى مطارح ما زالت تقيم في مداركي. لم تكن «المولات» الكبرى هذه، لم يكن التراموايّ، ولا كانت العمارات العالية كثيرة إلى هذا القدر، ولم يكن حي الرياض (وغيره)، وكذا مقارّ مؤسّسات وأحزاب وهيئات ومنشآت غير قليلة فيه. كان مقهى شعبي في مكان هذا المطعم الراقي. ... بمثل هذا ندردش في جولاتٍ مع أصدقاء ومعارف، مغاربة مقيمين هنا، وآخرين يزورون المدينة للمرّة الأولى. يروقُنا أن نرى أمام مبنى البرلمان بواجهته البديعة، في شارع محمد الخامس، اعتصاماً تُرفع فيه أعلام المغرب وفلسطين، يهتف المشاركون فيه إن «الشعب يريد تجريم التطبيع»، فيما الدرَك يقفون حرّاساً يستمعون. تستيقظ زوابعُ من ذكرياتٍ أمام مقهى وفندق باليما، قبالة البرلمان، مغلقيْن منذ جائحة الوباء كما حدّثنا محدّثنا. هنا بنك المغرب (المركزي) والبريد ومحطة القطار و... عمائر مبنية بأنماط قديمة، في شارع محمد الخامس الذي بناه الجنرال الفرنسي ليوطي، قبل أزيد من قرن، ثم صار شارعاً ينبض بأنفاس المغاربة. يمتدّ من مسجد السنة المبني منذ أزيد من قرنين، وصولاً إلى «السويقة»، حيث سور المدينة العتيقة. نؤوب إلى هنا ليلاً مرّة واثنتين وثلاثاً، نحن وبعض الصحب الزائر والمقيم، ونشرّق ونغرب في مسامراتنا، لا تغادرنا السياسة وغزّة وجديد الأخبار، ونُصادف معارف وأصدقاء في هذا المحلّ وذاك، ضيوفاً مثلنا على معرض الكتاب الدولي في الرباط (هذا هو اسمُه)، الذي يُبهرك احتشاد زوّاره وروّاده، من كل الأعمار، وقد احتاج أن يكون أكثر اتّساعاً ربما.

> كتب ابن بطوطة، لمّا سار في أزقة الرباط وتجوّل فيها، إن المسير استمرّ به حتى أدركه الليل، وخطواتُه تكتشف أعاجيب المدينة وغرائبها

لا أتجوّل في الرباط بعيني السائح، وليس من وقت فائض لأكون سائحاً هنا. لا أراني كما ابن بطوطة، الذي كتب لمّا سار في أزقة الرباط وتجوّل فيها، إن المسير استمرّ به حتى أدركه الليل، وخطواتُه تكتشف أعاجيب المدينة وغرائبها. إنما أراني مثله، يملأ كلينا الفضول، وهذا فيّ هنا يتعلق بالذي يجعل مدينةً أحبّ إليك من أخرى ربما تكون أجمل طبيعة، غير أن الذي يشدّني إلى محبّة الرباط كل هذه الألفة، كل هذه النظافة، كل هذه الطمأنينة، وسط أصدقاء بلا عدد، حيث الغبطة بهم باهظة وأكثر.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**